قرن من الصمت.. كيف تغيرت المقاربة الكردية تجاه الإبادة ضد الأرمن؟

رافي ختشادوريان

كتب رافي ختشادوريان هذه المادة لصحيفة "نيويوركر" الأمريكية في عدد 29 ديسمبر 2014 بعد رحلة قام بها في موطن جده، دياربكر، سرد خلالها وقائع رافقت عمليات الإبادة ضد الأرمن عام 1915 حيث كان جدّه في المدينة، وأحد الناجين القلائل من تلك الأحداث. تعكس سردية ختشادوريان اتجاهاً ينمو شيئاً فشيئاً، وهي مساحة مشتركة تصالحية بين الأرمن والكرد ضمن تحولات سياسية واتجاهات جديدة لمقاربة صريحة تجاه واحدة من أسوأ فصول انهيار الدولة العثمانية وسيطرة المتطرفين القوميين على الحكم.

عندما أحاول تخيّل جدي، فإن شكله الذي أتخيله هو عبارة عن لوحة بقلم الرصاص معلقة في منزل والدي. هذا البورتريه يمثّل أقدم صورة له في عائلتنا. يبدو في الثلاثينيات من عمره، محدقاً من على الجدار بمظهر جاد، وشارب أنيق، وياقة طويلة، وربطة عنق. يبدو كرجل معتدّ بنفسه.

لم أتمكن من لقائه، فقد ولدت في سبعينيات القرن الماضي، في لونغ آيلاند (في الولايات المتحدة)، فيما ولد هو في ثمانينيات القرن الأسبق، في الإمبراطورية العثمانية، بالقرب من نهر الفرات. توفي عام 1959 - وهو العام الذي وصلت فيه أول مركبة فضائية إلى القمر، واستولى فيدل كاسترو على السلطة في كوبا، ونشر فيليب روث (رواية) "وداعاً كولومبوس"، رغم أنني

أعتقد بأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الأشياء. ما كان يعرفه هو الحرمان، والعنف الجماعي، والمجاعة، والتهجير- وكيفية النجاة، بل والازدهار، وسط هذه الظروف.

أمضى جدي معظم حياته في دياربكر، المدينة التي كانت تحتوي على حامية عسكرية. تحيط بالمدينة أسوار قديمة بنيت من الصخر البركاني الأسود. في عام 1915، حول العثمانيون المدينة والمدن المحيطة بها كما جزء كبير من تركيا إلى ساحة قتل، في حملة من المذابح والتهجير القسري، التي باتت تعرف باسم الإبادة الجماعية للأرمن. كانت الخطة تهدف إلى القضاء على أرمن الإمبراطورية، "مرض قاتل يتطلب علاجه اتخاذ إجراءات حاسمة" وهو التعبير الذي كان متداولاً، ونجحت الخطة إلى حد كبير. قتل العثمانيون أكثر من مليون شخص، لكن، بطريقة ما، نجا جدي.

أنقذ جدّي عائلته خلال المحنة، وبقي في المدينة لفترة طويلة بعد ذلك، وتحمل عقوداً من الاضطهاد الناعم الذي أعقب ذلك. لم يكن هناك حساب حقيقي لمرتكبي الإبادة الجماعية؛ بل أسهم العديد منهم في بناء الجمهورية التركية الحديثة، التي تأسست عام 1923. ربما يكون العنف قد انتهى، لكن إيديولوجيتها الحية استمرت. وكما قال عصمت إينونو، رئيس الجمهورية من عام 1938 إلى عام 1950 ، "إن واجبنا هو فرز الأتراك عن الآخرين داخل الدولة التركية، بغض النظر عن أي شيء. سنبتر ونرمي أي عنصر يعارض الأتراك والتركياتية". وبالفعل، بعد الإبادة الجسدية، بترت الدولة الأرمن من تاريخها. وتشكل مدينة آني مثالاً مبكراً على هذه السياسة. وآني مدينة أرمينية قديمة مندثرة منذ القرن الرابع عشر، لم يبق منها سوى بعض الأوابد وبقايا كنائس. لكن كيف تقوم السلطات التركية بتعريف المدينة؟ إنها في هذه الحالة تتجاهل التاريخ الاجتماعي للمدن غير التركية، ولا تذكر من بناها ومن كان سكانها. أيضاً في اسطنبول، لم يرد ذكر من صمم قصر دولما بهجة، الذي كان في السابق قصر السلاطين. سميت سياسة المحو هذه بـ "التتريك"، وامتد تأثيره جغرافياً: فقد سمي مسقط رأس جدي، المعروف منذ أيام تيمورلنك باسم Jabakhchour ("المياه المنتشرة")، بـ Bingöl ("ألف بحيرة").

لم تقتصر الإبادة على ما ذكر فقط، بل طالت الأسماء أيضاً. بموجب قانون سُن في عام 1934 ، تم تغيير لقب جدي خاتشادوريان (ويعني الممنوح بالصليب) إلى أوزاكديمير (حديد أبيض نقي).

بعد الإبادة أصبحت ديار بكر مدينة جريحة في طابعها التعددي الغني، وتناقص عدد مجتمعاتها المحلية العريقة من قاطنيها بشكل كبير، خاصة المسيحيون واليهود والأيزيديون. مع ذلك، استمر جدي بالعيش فيها حتى عام 1952.

نشأ والدي، وهو الثاني عشر في الترتيب من أبناء جدّي، في ديار بكر، وترعرعت وأنا أستمع إلى رواياته عن هذه المدينة. في الحفلات، في جلسات القهوة أو العرق، كان يصف المكان بعبارات أسطورية، كنوع من الأناضول الساحرة، يسكنه أشخاص يحملون أسماء مثل حاجي ماما، وديلي ويلي، وأبل بوبو. لكن جدي كان دائماً يتفادى المشاركة في تلك القصص، ربما ليتجنب الحديث عن سر نجاته من الإبادة وبقائه في المدينة.

منذ ما يقرب من قرن من الزمان، والدولة التركية تنكر الإبادة الجماعية للأرمن - وحتى وقت قريب، كانت الإشارة إليها تعرضك للمحاكمة- وبالتالي فإن التحقيق في مثل هذه الأمور كان محفوفاً بالمخاطر. لكن منذ وقت ليس ببعيد حدث شيء غريب. ديار بكر، وبشكل مخالف لسياسة الدولة، بدأت تؤكد على أن شعبها يريدها وطناً مشتركاً مجدداً. محور تجربة التجديد في المدينة هو الكاتدرائية التي كانت يوماً تجمع سكان المدينة الأرمن، ومنهم جدي.

كنيسة القديسين كيراكوس وجوليتا، وهما شهيدان من فترة المسيحية الأولى، طفل مسيحي وأمه، عبارة عن هيكل واسع مهيب، مصنوع من الصخور البركانية المنحوتة، ويقع في وسط مدينة دياربكر القديمة. في اللغة الإيطالية، الطفل هو سان كيريكو؛ أما في الأرمينية ، سورب كيراكوس، وهي أكبر كنيسة أرمينية في الشرق الأوسط، وقد تم بناؤها في القرن التاسع عشر بتصميم كنسي بسيط، تحتوي على سبعة مذابح، وسقف خشبي مسطح مدعوم بستة عشر عموداً حجرياً مترابطاً وصفوفاً من الأقواس المتسلسلة بأناقة. مرت الكنيسة بالعديد من فترات الخراب. في عام 1880، احترقت وتحولت إلى رماد، وأعيد بناؤها. في عام 1913، دمر البرق برج الجرس. أما برج الجرس البديل، الذي احتوى على ساعة باهظة الثمن بثمانية واجهات وجرس مصبوب في إسطنبول، دمر أثناء الإبادة الجماعية في قصف مدفعي في 28 مايو/أيار 1915، لأن البرج تجاوز ارتفاع مآذن المدينة، حسب تفسير إحدى حسابات السوشيال ميديا المعاصرة.

يجب أن أذكر قصة واقعية توارثتها عائلتي: ذات يوم، جاء أحد مهندسي إعادة ترميم برج الكاتدرائية إلى جدي طالباً منه الاحتفاظ بمعداته وممتلكاته الثمينة، وأخبره أنه يخطط للهرب. بعد أيام، جاءه أيضا أحد بناة البرج، شاكياً معاناته من الضغوطات، وموضحاً أن المسؤولين أمروه بتفكيك البرج بطريقة يمكّن من إعادة استخدام نقوشه ومحتوياته أو بيعها.

بعد الإبادة الجماعية، وقعت الكنيسة والعدد القليل من الأرمن المتبقين في ديار بكر في دوامة من التدمير. لبعض الوقت، تم استغلال الكنيسة كمستودع لبنك حكومي وكمرفق عسكري مؤقت. يتذكر والدي، في صباه، مشهد المجندين المصفوفين ليتم غطسهم في براميل من المعقّمات. لم يعد لدى أبناء الكنيسة بعد هجرتهم إلا صورة واحدة لها كذكرى للاحتفاظ بها كما عمّتي التي وضعتها في ألبوم صورها. أهملت الكاتدرائية، وبدلاً من الصلاة فيها بات الناس المتبقون يتجمعون في كنيسة صغيرة، ساعد جدي في بنائها. لكن الناس الناجون من الإبادة واصلوا الهجرة بشكل ناعم. بحلول عام 1985، لم يعد هناك كاهن: توفي الأب أرسين فجأة، ولم يعد الأولاد يضايقونه في الأزقة الحجرية بهتافاتهم. بعد ثماني سنوات، مع تراكم الثلوج على سقف الكنيسة المهملة، انهار كل شيء. في النهاية، بقي هناك فقط أنترانيك زور، عجوز غريب، وصياً على الأنقاض، الذي أخبر الزوار بمرثية على الأطلال: "غادر الجميع، لقد أصبحوا جزءاً من التراب، ولم يبق هنا غيري".

في مطلع العام 2000 زارت أختي كنيسة كيراكوس لتحقيق نذرها، ووجدت العم أنتو (العجوز انترانيك)، كما كان معروفاً، جالساً على حجرة كبيرة، أشعثاً: بقميص فضفاض، وسترة من الصوف مدسوسة في بنطال رياضي. من خلال صديق، تحدثت إليه باللغة التركية، لكنه بقي جالساً بصمت. في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، عادت وتحدثت معه باللغة الأرمينية، فقفز في حالة تأهب: من أنت؟ من أين أتيت؟ لم يكن لدينا كاهن هنا منذ فترة طويلة. هل تعرفين

الصلاة الربانية؟ تلت له الصلاة، فبكى، ثم قادها إلى سقيفة خلف الأنقاض. بحث بين أغراضه، وأخبر أختي أنه كان ينتظرها حتى تتمكن من حماية الآثار التي كان يحرسها. ظهر ومعه الكتاب المقدس، ممزّق الغلاف، وطلب منها أن تأخذ الكتاب إلى حيث يمكن أن يكون آمنًا. لقد تحدث بإلحاح يائس عما سيفعلونه بالكتاب إذا وجدوه هناك.

أخذت أختي الكتاب المقدس بالطبع واحتفظت به في منزلها. بعد ذلك بوقت قصير، زرت ديار بكر أيضاً، وذهبت للبحث عن العم أنترانيك ، لكن الناس بالقرب من كنيسة كيراكوس أخبروني إنه نُقل إلى المستشفى. في الواقع، لم يغادر سريره مرة أخرى. في الكنيسة، كان أطفال كُرد يلعبون كرة القدم، ويمرون عبر ظلال الأعمدة والأقواس التي كانت في ذلك الوقت تحتضن السماء فقط.

رياح التغيير: الطبقة السياسية الكردية

بدأت أنباء تغير الجو العام في المدينة تلوح في الأفق منذ عام 2008، بالتزامن مع أحاديث غير مؤكدة عن إعادة تأهيل كنيسة القديس كيراكوس ووضعها في الخدمة. بعد ذلك، في عام 2011، أكدت الجريدة الأسبوعية الأرمنية (التي كانت تصل إلى منزل والديّ منذ فترة طويلة) صحة هذه الأخبار، وأشارت إلى أن "كنيسة القديس كيراكوس ستفتح أمام المؤمنين"، وأن الهيكل "يقف متحديا كما كان دائما للقوى التي تقمع الحرية في تركيا". حضر بضع مئات من الأشخاص لإعادة الترميم، معظمهم من اسطنبول، أو من الخارج. وقال رئيس بلدية ديار بكر (القيادي الحالي في حزب الشعوب الديمقراطي) عثمان بايديمير للزوار الأرمن: "أنتم لستم ضيوفنا، بل نحن ضيوفكم". في المكان نفسه أشار عبد الله دميرباش (وهو سياسي كردي وعضو في حزب الشعوب الديمقراطي أيضاً) عمدة الحي القديم بالمدينة، حيث كانت تعيش عائلتي، إلى "الكارثة العظمى" - الإبادة الجماعية - قائلاً: "أجدادنا، بتحريض من الآخرين، ارتكبوا أخطاءً، لكننا نحن أحفادهم لن نكرر ما ارتكبوه".

منذ إعادة الافتتاح، بدأ المئات بالتوافد إلى كنيسة القديس كيراكوس يومياً، وزياراتهم كانت مزيجاً من الفضول، والتكفير عن الذنوب، والذكريات، والبحث عن الهوية الأرمنية المفقودة. جاء البعض محاولاً تجميع تاريخ عائلته، وقصص البقاء. في أبريل/نيسان (2014)، قمت بحزم حقيبتي (والكتاب المقدس القديم) وسافرت باتجاه الكنيسة- لحل لغز بقاء جدي، إن أمكن، ولمعرفة كيف تم إحياء الكاتدرائية من جديد، وكيف تغيرت المدينة بشكل غير متوقع، وكيف تم أخيراً حل قرن من التاريخ المتنازع عليه.

تلوح جدران ديار بكر من مسافة بعيدة مع اقترابك منها، فيما تبدو المدينة القديمة صغيرة داخلها، ومنعزلة تقريباً. أخبرني والدي أنه في طفولته كانت الجدران أطلالًا مليئة بالثعابين والعقارب، ولم يكن يجرؤ على الاقتراب منها. وكما الكنيسة، يجري الآن تجديد الجدران؛ تمتد المتنزهات الجديدة على طولها، ويمكن للناس أن يقصدوها بحرية.

كانت المدينة القديمة تشهد ترميماً للمباني التاريخية في جميع أجزائها، يرافق ذلك تغييرات اجتماعية وسياسية أعمق. لأكثر من عشر سنوات (عقد التسعينيات)، كانت ديار بكر تحت "حالة الطوارئ". كانت التوترات القومية في ذروتها، والمخاوف التي شعر بها العم أنتو - مما

يمكن أن يفعلوه إذا جاءوا - كانت واضحة. أما هذه الأيام ، إذا علم أحدهم، أو صاحب متجر، أو مسؤول بأنك أرمني وأن أصولك من ديار بكر، فسوف يقوم باستضافتك في منزله، ويتم الترحيب بك وتقديم الشاي لك، والتعامل معك كقريب مفقود منذ فترة طويلة. ستكون صديقاً: وأحد أبناء المدينة.

عندما التقيت بـ "عبد الله دميرباش"، عمدة (رئيس بلدية) المدينة القديمة، كان قد أكمل للتو ولايته الثانية، كان كردياً، وسرعان ما أتضح أن قصة إحياء كنيسة القديس كيراكوس كانت مرتبطة بروايات العنف السياسي المتشابكة بين الأرمن والأكراد والأتراك لأكثر من قرن. لا يمكن إنكار إن الجو الودي من بلدية المدينة، واستعدادها لتحدي المفاهيم التقليدية حول الإبادة الجماعية، هي في غالبها توجهات كردية.

كان الأكراد أحد الأطراف الرئيسية في تنفيذ الإبادة الجماعية الأرمنية في عام 1915، في ديار بكر. ساعد أفراد من العشائر الكردية البارزة في التخطيط لمجازر السلطات العثمانية وازداد ثراءهم بالاستيلاء على الممتلكات (الأرمن). في الريف، نفذ زعماء القبائل الكردية عمليات القتل بوحشية ولا رحمة. ولكن بعد ذلك بوقت قصير وبعد أن أسس مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية التركية الحديثة، أصبح الأكراد أنفسهم هدفاً للتتريك، حيث بدأت الدولة عملية القضاء على ثقافتهم. المفارقة كانت حاضرة لدى المتابعين الأجانب، وقد عبر عن ذلك السفير البريطاني في أنقرة، عام 1927: "إنه فخ غريب نصبه القدر بحيث يواجه الأكراد، الذين كانوا أحد الأطراف الرئيسية في مأساة الأرمن، نفس المصير الذي تعرض له الأرمن بعد اثني عشر عاماً فقط ".

في نهاية المطاف، سادت في أنقرة وجهة نظر رُهابية ومتناقضة عن الكرد، قائمة على إنكار وجودهم كعرق وفي الوقت ذاته الضغط عليهم للتخلي عن كل ما يميزهم من صفات قومية. أصرت الدولة على أن الكرد مجرد "أتراك جبليين"، فئة من الفلاحين الأتراك. ظهرت حركة قومية مسلحة بقيادة حزب العمال الكردستاني رافقها فرض "حالة الطوارئ" في المنطقة. قام عملاء الدولة بتدمير القرى وتطهير الريف. تفشت الاغتيالات خارج نطاق القانون، واكتسب سجن ديار بكر سمعة سيئة كمكان للتعذيب والاختفاء. يتذكر سياسي كردي تلك الأعمال بالقول: "علقوني من ذراعي، عارياً، وربطوا أسلاك كهربائية في أعضائي التناسلية وفتحة الشرج. حيث يرتجف جسدي كلما قاموا بتشغيل التيار؛ يسمون هذا النوع من التعذيب: التحليق".

مع هجرة القرويين من الريف أصبحت ديار بكر مدينة كردية أكثر من الماضي. بمرور الوقت، بدأ أكراد ديار بكر يدركون أن دورهم في الإبادة الجماعية كان ضرباً من الخطيئة في تاريخهم السياسي الحديث. قال لي دميرباش: "أتذكر ذاك الكاهن الأرميني، الذي رد على إهانة كردي له بالقول: كنّا بمثابة فطور لهم، وستكونون الغداء. لا تنسى". ويضيف دميرباش: "كان ذلك مؤلماً".

ولد دميرباش عام 1966 في قرية كردية تسمى "سيسه". انتقلت عائلته إلى ديار بكر عندما كان في عامه الأول. يروي انطباعه الأول حين وصل المدينة: "عندما ذهبت إلى المدرسة الابتدائية لأول مرة، لم أكن قادراً على التحدث باللغة التركية. سألتني المعلمة سؤالاً، لم أفهمه، أتذكر

كيف مسكتني من أذني وضربت رأسي بالحائط. لم أذهب إلى المدرسة لمدة أسبوع بعدها". المدرسة التي التحق بها كانت مدرسة سليمان نظيف الابتدائية، التي سميت على اسم أحد الأعيان العثمانيين. يضيف قائلاً "قبل ثلاثين عاما، كان والدي قد التحق بالمدرسة نفسها، وسمعت قصصاً مماثلة منه عن الاعتداءات اليومية، والإهانات عبر لفظ gâvur، الذي يعني "كافر" ، اللقب الذي يحمل أصداء عام 1915. بالنسبة لوالدي، كان الوضع لا يطاق، فترك الدراسة واشترى شهادته مقابل أكياس من الأرز".

لكن بالنسبة لـ "دميرباش" ولّد ذلك رد فعل معاكس: تحت تأثير من قراءات للفيلسوف الإغريقي سقراط، أصبح دميرباش مدرّساً للفلسفة. بين عامي 1983 و 1991، كانت اللغة الكردية ممنوعة، لكنه وزوجته أطلقوا على ابنتهم اسم برفين، وهو الاسم الكردي لزهرة فاتحة اللون، ما عرّضه بشكل مباشر للملاحقة القضائية. وصلت المعركة القانونية إلى المحكمة العليا في تركيا، وعندما حسم دميرباش المعركة لصالحه، كانت ابنته قد بلغت من العمر عاماً. كمدرّس، واجه دميرباش محاولات التتريك المستترة. نقلته الحكومة من مدرسة إلى أخرى. وفي عام 2001، تم تعيينه في سيواس، وهي مدينة محافظة بشدة، حيث كتب بياناً نص على حق جميع الأشخاص في تركيا في تلقي التعليم بلغاتهم الأصلية، فتمت إقالته. عاد إلى ديار بكر وانتخب رئيساً لنقابة المعلمين. ومن هناك، دخل السياسة، وفي عام 2004 أصبح عمدة مدينة ديار بكر القديمة المعروفة باسم "سور" أي الجزء الداخل ضمن السور التاريخي.

بالتزامن مع خسارته لعمله كمدرّس، تم اتهام دميرباش بمئة قضية، سقطت بعضها بسبب تغيير القوانين؛ مقابل إضافة العديد من الدعاوي الأخرى، وهو لا يعرف عددها. أخبره محاميه أنه إذا خسر كل الدعاوى، فستكون عقوبته الإجمالية في السجن 483 عاماً. استغربت من عدم اكتراثه للدعاوي وعدم متابعته لشؤونه القانونية، لكن عندما تحدث عن قضاياه، بدأت أفهم السبب. بعد فترة وجيزة من انتخابه، قُتل صبي كردي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً برصاصة بالتزامن مع قيام الشرطة بقتل والده بالرصاص أمام منزلهم؛ نصب دميرباش تمثالاً لإحياء ذكرى هذه المأساة، بحفر ثلاثة عشر حفرة تمثل جروح الفتى بالطلقات النارية. تمت مقاضاته بتهمة إساءة استخدام مكتب البلدية ومواردها (الحبس ثلاث سنوات). رفعت القضية إلى المحكمة العليا، التي أعادتها إلى محكمة الإرهاب، ، والآن القضية في المحكمة العليا للاستئناف. في عام 2006، في مؤتمر عقد بالعاصمة النمساوية فيينا، قدم دميرباش ورقة بعنوان "الخدمات البلدية والحكومات المحلية في ضوء التعددية اللغوية". هذه المرة، كانت التهمة الموجهة إليه "الدعاية لمنظمة إرهابية" (الحبس خمس سنوات). عندما أصدر كتيباً سياحياً متعدد اللغات بالتركية والكردية والأرمنية والآشورية، وجهت إليه اتهامات عديدة. كما وجهت إليه تهمة التحدث باللغة الكردية أثناء تواجده في حفل زفاف.

في عام 2007، أجبرت الحكومة دميرباش على الاستقالة، فاتصل بصديق له يمتلك منزلاً بالقرب من مقر البلدية وأكمل من هناك مزاولة عمله "كعمدة ظل". لا يزال الصحفيون وكبار الشخصيات وأعضاء البلدية يطلبون نصيحته، وكذلك ناخبيه، الذين جاؤوا بالمئات، يقدمون له الشاي. قام عدد من موظفيه السابقين بجمع الأموال لتغطية ميزانيته الصغيرة وتطوعوا للعمل معه خلال ساعات الراحة. حصل أطفال دميرباش في سن المراهقة على وظائف لإعالة

الأسرة. بهذه الطريقة، واصل فترة ولايته، فيما استمرت الدولة في إيجاد طرق جديدة لتوجيه الاتهام إليه.

حدود التغيير: لا اعتذار

في عام 2009، زاره وفد من أرمن ديار بكر القاطنين في اسطنبول، كما يفعل غيرهم، لمناقشة ترميم الكاتدرائية. تم مناقشة الموضوع معه في ضوء التغيرات التي كانت قد بدأت في الموقف الرسمي للدولة التركية تجاه الأقلية الأرمنية وتجاه الإبادة الجماعية. كان صعود رجب طيب أردوغان، من حزب العدالة والتنمية، ووصوله إلى منصب رئيس الوزراء، في عام 2003، إشارة في البداية إلى مزاج جديد لمواجهة النظام القديم. في اسطنبول، أسس الصحفي الأرميني هرانت دينك صحيفة أغوس - وعندما اغتيل دينك، في عام 2007، احتج مائة ألف شخص، ورفع الكثير منهم لافتات تقول "كلنا أرمن!" كما وضع ثلاثون ألف شخص أسمائهم في بيان اعتذار جاء فيه: "إن ضميري لا يقبل إنكار الكارثة الكبرى التي تعرض لها الأرمن العثمانيون في عام 1915. أنا أرفض هذا الظلم وأنا أشارككم مشاعر وآلام إخواني وأخواتي الأرمن. أعتذر لهم ". في تلك الأجواء، قامت وزارة الثقافة بترميم كاتدرائية أرمينية مهمة شيّدت على جزيرة في بحيرة وان.

لكن حدود هذه التغيرات باتت ضيقة. قامت الدولة بتجديد كاتدرائية بحيرة فان، ولكن كمتحف؛ مع عدم السماح بإقامة القداس فيها لمدة ثلاث سنوات. لم يتوقف التتريك بشكل كامل. في عام 2005، أعلنت وزارة البيئة والغابات عن خطط لتصحيح "النية السيئة" للتسميات العلمية التي انتهكت "الوحدة التركية": وهكذا، تحولت تسمية نوع الغزلان المعروف باسم capreolus armenus إلى capreolus. حتى في خضم حزن الناس على هرانت دينك، توالت التهديدات بالقتل إلى مكتبه السابق. وعندما قدم الرئيس التركي، عبد الله غول، رداً على حملة الاعتذار، بياناً غامضاً حول إمكانية "الحوار"، اتهمه أحد القوميين بأنه من أصل أرمني، فسارع غول لإثبات نسبه التركي "منذ قرون"، ورفع دعوى قضائية بتهمة التشهير وفاز بها. في البرلمان أثار اقتراح أحد النواب بتبني الاعتذار ضجة كبيرة، اتهم رئيس البرلمان النائب (صاحب الاقتراح) بـ "إهانة المجتمع الذي يعيش فيه". انطلقت حملة جديدة تحت مسمى "أنا لا أعتذر" وحصلت على عدد أكبر بكثير من الموقعين.

ذهب وفد من أرمن ديار بكر إلى وزارة الثقافة، طالبين مساعدة مالية لترميم الكنيسة في دياربكر. وافقت الوزارة على دفع التكلفة الكاملة، أكثر من مليوني دولار، ولكن فقط مقابل صك، يشترط تحويلها إلى متحف. أخبرني "وارتكيس ارغون ايك" - Vartkes Ergün Ayık، رئيس مؤسسة القديس كيراكوس، التي قادت جهود الترميم، أنهم لم يفكروا طويلاً في اتخاذ قرار العدول عن الأمر: "من الأفضل تركها في حالة خراب بدلاً من وقوفها كرمز فارغ". وبدلاً من ذلك، حضر على رأس وفد للقاء رئيس بلدية ديار بكر، عثمان بايدمير، الذي امتد نطاق عمله ليشمل المدينة بأكملها. وافق بايدمير، الذي كانت عائلته قد آوت الأرمن قبل قرن من الزمن، على المساعدة، لكنه أبدى ضرورة أن يأتي غالبية التمويل من الأرمن، بحيث يتم استثماره في المشروع. في النهاية، حصل أيك على معظم التمويل من مانحين من القطاع الخاص.

كانت عائلة أيك قد غادرت ديار بكر في نفس العام الذي غادرت فيه عائلتي سنة 1952، وعلمت منه أن والدي عمل لدى والده في فصول الصيف في بيع الخردوات بالقرب من المسجد الكبير. في خمسينيات القرن الماضي، قام والد أيك بحملة لإعادة كنيسة القديس كيراكوس إلى الأرمن من المصرف الحكومي، وكان أيك يسير على خطا والده. في إحدى الليالي في منزله، أراني مجلدات من الملاحظات التي كتبها والده: شهادات البقاء على ورق رقيق طبعت على آلة كاتبة قديمة، وقصائد شعبية، وأعمال عثمانية، وقوائم القرى الأرمنية، وأسمائها القديمة والجديدة. على الرغم من اعتذار الكرد، إلا أنه بدا حذراً. صاغ الأكاديميون مصطلحاً جديداً، "التكريد"، لوصف جهود الأكراد إثبات أحقيتهم وعراقتهم في ثقافة المنطقة. ذات يوم توجه أيك بالسؤال إلى دميرباش ، "إذا تم منح الحكم الذاتي للكرد، فهل سيبقى موقفك بخصوص حقوق الأقليات كما هو الآن؟" أجابه دميرباش ضاحكاً: "نعم".

رسالة إلى الأرمن: عودوا

في الحقيقة، لم تنظر الحكومة بارتياح إلى هذه الشراكة الكردية-الأرمنية لإعادة بناء كنيسة القديس كيراكوس. في الوقت الذي بدأت فيه أعمال الترميم، في عام 2009، تم توجيه اتهامات على عجل إلى رئيسَي بلدية ديار بكر، ويبدو أنها صممت لسحق القيادة السياسية الكردية في المنطقة. اقتحمت الشرطة منزل دميرباش في الساعة 5:30 صباحاً. اعتقلته تحت تهديد السلاح، وفي المركز، قام أحد طلابه السابقين بتقييده بالأصفاد وعيناه ممتلئة وتظهر عليه علامات التردد، لكن دميرباش طمأنه وطلب منه أن يقوم بعمله. كانت التهمة خطيرة- الانتماء إلى تنظيم تابع لحزب العمال الكردستاني- ونفى دميرباش ذلك. مكث في سجن ديار بكر حتى عام 2010، عندما أطلق سراحه لأسباب صحية، وبقيت الدعوى القضائية مستمرة.

رغم ذلك استمر دميرباش في القيام بما يؤمن به. شرع في إعادة تسمية ثلاثة شوارع بأسماء كتاب محليين: كردي وأرمني وآشوري. استخدم أموال البلدية لتنظيم دورات في اللغة الأرمينية وأقام لافتة باللغة الأرمينية ترحب بالزوار. ضمن ولايته القضائية، تمت إعادة سبعة عشر قطعة أرض تم سلخها من الكنيسة. وقال لصحيفة "أرمينيان ويكلي": "نريد أن يدرك سكان المدينة أن ديار بكر كانت دائماً مدينة متعددة الثقافات". عندما سألته الصحيفة الأسبوعية "ما هي رسالتك للأرمن الذين اقتلعوا من أراضي أجدادهم؟" قال دميرباش: رسالتي هي "عودوا".

كان جدي طفلاً صغيراً عندما وصل إلى المدينة في ظروف عصيبة. تبدأ قصته في جباخشور (بينغول)، على بعد حوالي مئة ميل شمال ديار بكر، حيث كان والده ختشادور إقطاعياً معروفاً. كان لختشادور 4 أولاد اثنان منهم لزوجته من زواجها السابق، وفي الثمانينيات من القرن الأسبق، دفع أحدهم رجلاً كردياً خلال مشاجرة، فأسقطه قتيلاً. سُجن ابن زوجته وحُكم عليه بالإعدام شنقاً، لكن ختشادور دفع أموالاً كبيرة ونجح في إنقاذ حياته. غضبت عائلة الرجل الكردي فقامت بحرق حقوله وسرقة ماشيته وتهديده بالقتل. أخذ ختشادور عائلته- بمن فيهم جدي، الذي ربما لم يبلغ من العمر عامين في حينه، وهرب إلى ديار بكر، ولجأ إلى كنيسة القديس كيراكوس، الذي كان ملاذاً للحجاج. في الطريق، التقى بخياط أرمني كان يعيش في

المدينة، ودعاه للعيش معه. لم يمض وقت طويل على وقوع كارثة أخرى: اجتاح وباء الكوليرا ديار بكر، ومات ختشادور واثنين من أطفاله. لكن جدي ووالدته نجيا، وقام الخياط الأرمني بالاعتناء بهما.

في نهاية القرن التاسع عشر كان الوضع في ديار بكر مضطرباً. كانت الإمبراطورية تتدهور بشكل متسارع ، وفرض القادة العثمانيون، بغية الحفاظ على سيطرتهم الممتدة من تونس إلى البصرة، إصلاحات تهدف إلى توحيد الشعوب من مختلف الأديان واللغات حول الهوية العثمانية. عززت الإجراءات الجديدة الحقوق الفردية، وقلبت النظام الديني القديم الذي وضع مسيحيي الإمبراطورية في درجة أدنى من مسلميها ، ووعدوا بمساواة أكبر للأرمن. لكن الإصلاحات نُفّذت بشكل متقطع، وغالباً ما غدت الحياة أكثر سوءً. العديد من الأكراد، الذين شعروا أن وضعهم بات مهدداً، هاجموا جيرانهم بعنف.

تفاقم الشعور بالاستياء الشعبي بعد أن فقد العثمانيون أراضيهم في الحرب الروسية التركية عام 1878. في معاهدة برلين، سعت القوى العظمى إلى فرض إملاءات على الإمبراطورية، والتزم السلطان بتنفيذ إصلاحات "في المقاطعات التي يسكنها الأرمن، وضمان أمنهم ضد الشركس والأكراد". اعتبر السلطان عبد الحميد الثاني تقوية العلاقات بين الأرمن والغرب دليل خيانة. قام بتشكيل ميليشيا كردية لإحكام سيطرة الدولة على الإقطاعيات، واستخدمها لمعاقبة مئة ألف أرمني.

في ديار بكر، تصاعدت المخاوف من أن تؤدي الإصلاحات إلى منح الأرمن الكثير من الحكم الذاتي وتحولت هذه المخاوف إلى مذبحة. (كتب المسؤول العثماني سليمان نظيف تعليقاً على هذه المخاوف: "كما كان أجدادنا من قبلنا، مهمتنا الأساسية هي العمل من أجل مجد الخلافة وزيادة عدد سكانها. هذا هو الطريق الذي سنسير عليه حتى الموت") غرقت المدينة في نوفمبر/تشرين الثاني 1895 في أعمال عنف عرقية استمرت 3 أيام. اندلعت النيران بالقرب من المسجد الكبير، ونهب المسلمون متاجر ومنازل الأرمن، مما أدى إلى مقتل المئات. اشتعلت النيران في السوق، وظل الدخان مرئيًا لمسافة خمس وثلاثين ميلاً.

هل من سبيل إلى كيم كارداشيان؟!

لا أحد في عائلتي يعرف كيف نجا جدي، لكن من الواضح أنه كان يجد لنفسه ملاذاً. عندما كان في العاشرة من عمره، قرر الخياط أن يعلمه المهنة. "ما هو اسم عائلتك؟" سأله الخياط. لم يكن جدي يعرف كنيته ولا والدته عرفت ذلك. فقال الخياط، "حسنًا ، ما اسم والدك؟" قال جدي إنه ختشادور. فقرر الخياط أن يكنّيه بـ "ختشادوريان".

كان اسم جدي هاكوب - وهو التسمية الأرمينية ليعقوب- ولكن في مرحلة ما تبنى أيضاً اسماً إسلامياً كان يطلق على شارع أيضاً، سعيد، وأصبح معروفاً بين غير الأرمن باسم ترزي سعيد (الخياط سعيد). في النهاية، افتتح محلاً بالقرب من الجامع الكبير، وسط المدينة.

في صباح عيد الفصح ذهبت أبحث عن واجهة المحل القديم. لم يبق منها شيء، لكن المنطقة كانت لا تزال مليئة بالمتاجر الصغيرة التي تصطف على جانبي الطريق المقسّم لديار بكر

القديمة. كانت المسافة قصيرة من وسط المدينة إلى كنيسة القديس كيراكوس، مروراً بأكشاك الشاي، والباعة، ومئذنة عمرها 500 عام متوازنة بشكل غير مستقر فوق أربعة أعمدة صغيرة. بالقرب من الكنيسة، تلاشت المتاجر. أصبحت الأزقة الحجرية الضيقة أكثر اتساقًا، وأصبح الالتفاف أسهل. من بعض الزوايا، كان من الممكن رؤية برج الجرس الذي أعيد بناؤه. كان تأثير دخول فناء الكنيسة الكبير - بحديقته، وأوراق الجميز، وطاولات الشاي الخشبية - مشابهاً للخروج من نفق إلى الصافية. لم يبق شيء من خراب كنيسة القديس كيراكوس. بنيت الكنيسة من صخر بركاني مسامي، كان ينتاب المرء إحساس الدخول إلى هيكل حي.

كان يوم الأحد هذا هو أول عيد فصح يتم الاحتفال به في الكاتدرائية منذ إعادة بنائها، وكان كاهن فظ يُدعى الأب كيفورك قد أتى من اسطنبول ليقيم القداس. وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت مفتوحة يومياً، إلا أن البطريركية تباطأت في تعيين كاهن دائم . وبالمثل، بدا الأرمن الذين يعيشون في الخارج مترددين في دعم الكنيسة، في مكان لا يوجد فيه مجتمع واضح ينتمي إليها. كان أيك لا يزال يكافح من أجل جمع أربعمائة ألف دولار لدفع الفواتير المستحقة. سألتني ابنته إذا كنت أعرف طريقة للوصول إلى كيم كارداشيان.

دميرباش: ترميم الكنيسة نقد ذاتي

جزء من اللامبالاة كان مرده تجذر الشكوك لدى المجتمع الأرمني حول الاستثمار في بلد تعتبر فيه "الأرمنية" شكلاً من أشكال الافتراء. لكن أيك كان يعتقد أن ترميم كنيسة وإحيائها يعني التخلص من موقف الضحية الغاضب. كان هناك أيضاً سؤالاً جوهرياً: ما هو الغرض من المبنى؟ قال دميرباش إن إعادة الإعمار كانت بمثابة نقد ذاتي واعتذار ورمز للتناغم. قال أيك إن الكنيسة كانت بمثابة نصب تذكاري لأولئك الذين عاشوا من قبل هنا.

مع ذلك، لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً من الجلوس في ذلك الفناء صباح عيد الفصح، لفهم أن كنيسة القديس كيراكوس الجديدة كانت بحاجة إلى تأدية دورها ككنيسة لتحقيق هدف خاص في مناخ التتريك السائد. رغم أن العم أنتو (أنترانيك) قال يوماً، "لم يبق أحد غيري" ، لكن اتضح أنه في محيط أنقاض القديس كيراكوس كان هناك أناس من أصول أرمنية مختلطة، أشخاص تم أسر آبائهم أو أمهاتهم أو جداتهم في عام 1915، وتزويجهم من أسر مسلمة، وتسميتهم بأسماء وهويات جديدة. في القرى، حيث لم تكن أصول أي أحد سراً، كان يتم التعرف عليهم في كثير من الأحيان، وأصبحوا معروفين بلقب "بقايا السيف". لا أحد يعرف الحجم الحقيقي لهذه المجموعة السكانية المخفية في جميع أنحاء تركيا، وتتراوح التقديرات بين 30 ألفًا كحد أدنى و3 ملايين كحد أقصى؛ الهويات السرية بدأت تظهر الآن فقط. قبل بضع سنوات، أتت مجموعة من هؤلاء الأشخاص إلى كنيسة القديس كيراكوس ليتم تعميدهم، وتم إخفاء أسمائهم لأسباب أمنية. لكن تجرؤهم على ذلك كان في غاية الأهمية، وكان بإمكاني أن أرى كيف يمكن للكنيسة الحية أن تشير، بطرق لا يستطيع المرء أن يشير إليها، أن كونك أرمنياً أصبح مقبولاً.

في صباح عيد الفصح، كان القائمان على رعاية الكنيسة ، وهما آرام خاتشيجيان وأرمن دميرجيان، يكملان الاستعدادات بنشاط، لكن لم يمنعهما العمل من تناول الشاي معي لبضع دقائق في الفناء. قال لي خاتشيجيان "إذا قمت بالبحث بعمق، فإن 60 بالمئة من سكان المدينة

لديهم صلة بأصول أرمنية (من ناحية الأب أو الأم). وأضاف: "أنا أعتمد في هذا على الأشخاص الذين يأتون إلى الكنيسة. نجا سبعة أشخاص من عائلتي عام 1915، كان جدي واحداً منهم - ومن خلال دعم بعضهم البعض، انتهى بهم الأمر ليصبحوا عائلة. إذا نظرت إلى أحفادهم ، فإن هؤلاء الناس يعترفون بأنهم أرمن، لكنهم جميعاً تقريباً مسلمون. منذ اليوم الذي ولدت فيه، عرفت نفسي بأني أرمني - على عكس الكثير من الأرمن، الذين لم يعرفوا ذلك حتى بلوغ الخامسة والعشرين من العمر".

أعاد الرجلان ، اللذان أطلق عليهما اسم إسلامي عند الولادة ، تسمية أنفسهم بأسماء أرمنية تكريما لأجدادهم الأرمن.

لغز نجاة العائلة

في التاسعة صباحاً، سار خاتشيجيان إلى مدخل الكنيسة ودق الجرس. في الداخل، كانت المقاعد تمتلئ ببطء، فيما البخور يملأ الأجواء. في طفولة والدي، اجتمع الأرمن في عيد الفصح في الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية. مكثوا بعد منتصف ليل الخميس المقدس، وفي ذروة الحفل انطفأت الأضواء ودوت الترانيم في الظلام. تجولت بين 800 شخص في كنيسة القديس كيراكوس - كثير منهم مسلمون - استطعت أن أرى أن ما كانوا يحتفلون به لم يكن عيد الفصح ولكن فكرة إحياء عيد الفصح. عندما تفرق الحشد، عرّفت عن نفسي لرجل مسن في الصف الأمامي.

- سألني "من هو جدك؟"
- "هاكوب خاتشادوريان"
- "لا أعرف شخصاً بهذا الاسم. من هو والدك؟"
- "بوزانت خاتشادوريان"
- "لا أعرفه أيضاً". حدق الرجل العجوز قليلاً ثم أضاف. كنت أعرف شخصاً واحداً أسمه بوزانت كان عمره 11 عاماً. منذ زمن بعيد كان ابن الخياط سعيد"
- "لكن الخياط سعيد جدي"
- "نعم، نعم، الخياط سعيد. أنا أتذكره كان رجلاً طيباً"

في اليوم التالي كنت في طريقي إلى جزء من المدينة القديمة يسمى القلعة. بُنيت القلعة على جسر يطل على نهر دجلة، وكانت تحتوي على سجن ومبان رسمية وحدائق وكنيسة ومسجد. ومن الإضافات اللاحقة مكتب فرع المخابرات الخاص بقوات الدرك. العديد من الأكراد، الذين دخلوا إلى الفرع الأمني في التسعينيات، لم يعودوا قط. في السنوات الأخيرة، تم تحديد أكثر من 45 مقبرة جماعية كردية في المنطقة، وفي عام 2012 تم اكتشاف مخبأ لبقايا الجثث في القلعة. تم تسليم بقايا العظام إلى معهد الطب الشرعي في اسطنبول، والذي خلص إلى أن "العظام كانت ملقاة في الأرض منذ مئة عام على الأقل". قبل قرن من الزمان، كانت القلعة نقطة انطلاق لعمليات ترحيل الأرمن: مسيرات قسرية، تنتهي الغالبية العظمى منها بالموت. اعتاد جدي أن يقول إنه في عام 1915 سمع صرخات من القلعة. كان الموتى، كما يتذكر، قد تم إلقاءهم على الأرض المليئة بالدماء في الأسفل.

بعد قرن من الزمان بعد الإبادة الجماعية للأرمن، لا تزال العديد من تفاصيلها غامضة. لقد منع إنكار الدولة الواسع للإبادة الوصول إلى الأرشيفات الرسمية - مع إغلاق بعضها والبعض الآخر مفتوح بشكل محدود. السجلات العثمانية الرئيسية مفقودة أو تم إتلافها. ومع ذلك ، من الواضح أن عنف الإبادة الجماعية انبثق من تيارات عميقة من انعدام الأمن السياسي. تحدث هتلر عن ألمانيا بأنها "محطمة، ومعرضة لركلات العالم بأسره". شعر نظرائه العثمانيون قبله بأزمة حضارية مماثلة.

في عام 1908 ، ظهرت مجموعة من الإصلاحيين تسمى تركيا الفتاة وبدأت في انتزاع السيطرة من السلطان. لقد وصلوا إلى السلطة، ووعدوا بمزيد من الحريات والوحدة الإمبراطورية. أطلقوا على حزبهم السياسي اسم لجنة الاتحاد والترقي. لكن الإمبراطورية التي سعوا إلى توحيدها كانت تتفكك بلا هوادة. في غضون عدة سنوات، استقروا على مبدأ يسمى التركياتية، والذي تصور دولة موحدة عرقيا. كانت الفكرة إنشاء "وطن مثالي يجمع كل الأتراك ويستبعد الأجانب".

تم افتتاح مكتب في ديار بكر من قبل أحد الأيديولوجيين المركزيين للحركة. بالقرب من متجر جدي، بجوار الجامع الكبير، كان هناك خان حيث كان المفتي الحاج إبراهيم- الذي ينتمي لعشيرة Pirinçizade البارزة - يشرب الشاي، وعادة ما ينضم جدي إليه. ذات يوم ، بينما كانوا يجلسون معاً، اقترب شاب وسيم، كان شريف ابن المفتي، مفعماً بالحماسة الثورية، ويردد مقولة لكاتب يقول إن الأرمن "خونة". تحدث عن انضمامه إلى الاتحاد والترقي، لكن والده أعرب عن عدم ارتياحه للحركة. قال بأن "رائحة الدم" تفوح منها. وأضاف ، وهو يشير إلى جدي: "سيبقى هذا الرجل في مأمن".

في عام 1914، كان جدي في الثلاثين من عمره - عازباً، على غير العادة بالنسبة لعمره. كان قد اكتسب شهرة في صناعة الملابس الغربية، وقام برحلات إلى لبنان وسوريا لشراء معدات الخياطة والأقمشة الفاخرة. اشترى منزلاً في منطقة "حي الكفار" في ديار بكر- مبنى جميل به فناء كبير وبئر وشجرة قديمة.

في أحد الأيام، التقى بصائغ نحاس شاركه لقبه (خاتشادوريان). كان كيفورك خاتشادوريان ذو وجه نحيف وأنف طويل وعينان كبيرتان. هو أيضاً نجا من مذبحة عام 1895. عندما بدأ العنف، ناقش أصحاب المتاجر الأرمن ما يجب فعله، التجأ كيفورك إلى كنيسة القديس كيراكوس، وحصن بابها بحجر. دُمّر متجره. ثم هربت الأسرة إلى قرية. بعد أن عادوا إلى ديار بكر، ظل وضعه المالي مزرياً، واضطر إلى بيع منزله.

أصبح كيفورك وعائلته مستأجرين في منزل جدي. بالنسبة لوالدة جدي، كان وصولهم مصادفة. كانت تصر على تزويج ابنها المسن. كان لكيفورك ابنة، اسمها زيفارت ، وهي فتاة ذكية قوية الإرادة ذات شعر داكن وعينين داكنتين. كانت زوجة كيفورك تحميها: كانت تلميذة ، وكان جدي يبلغ ضعف عمرها. لكن والدة جدي كانت متحمسة لتزويجه، وفي عيد ميلاد زيفارت السادس عشر - 14 شباط/فبراير 1914 - تزوجا. لم تكن الحرب العالمية الأولى قد بدأت بعد.

كانت الإمبراطورية تتداعى. التوترات العرقية تتزايد. في حروب البلقان، قامت سلسلة من الجماعات المتمردة المسيحية، بتحريض من الحلفاء الأجانب، بتجريد العثمانيين من جميع أراضيهم الأوروبية تقريباً. كتب أحد الضباط: "غضبنا يزداد: انتقام ، انتقام ، انتقام". بعد بضعة أشهر، أصبح وزيراً للحرب. خلال الهدنة، فرضت القوى العظمى مرة أخرى إصلاحات لتحسين معاملة الأرمن، لكن لم يتم تفعيلها أبداً. عندما أصبحت وحدة الإمبراطورية هي الأولوية، كان حزب الاتحاد والترقي بدأ في فرض التركياتية من خلال الترحيل. تم تشكيل نظام الحصص، حيث لا ينبغي أن تكون نسبة الأرمن في الأراضي العثمانية أكثر من عشرة في المائة (من عدد السكان) في أي مكان يقطنونه.

في يناير 1915 ، عانت الإمبراطورية من خسارة فادحة أخرى، هذه المرة على الجبهة الروسية: قتل عشرات الآلاف من الجنود العثمانيين، وبدا التوغل الروسي إلى العمق وشيكاً. كانت الخسارة نتيجة الحرب العالمية الأولى، لكن الحرب قدمت أيضاً فرصة لاتخاذ تدابير أكثر صرامة.

في 24 نيسان/أبريل 1915، في اسطنبول، تم اعتقال أكثر من مائتي مثقف أرمني- شعراء وأطباء وكتاب وأعضاء في البرلمان -قتلوا مع استثناءات قليلة. تم توجيه القوافل إلى محافظة ديار بكر أو إلى الصحراء السورية، وإلى المخيمات حيث تم ذبح الناس أو تركهم يموتون بفعل الجوع والحرمان. عندما ناشد سفير الولايات المتحدة (هنري مورغنتاو) وزير الداخلية (طلعت باشا) كان الجواب أن "الكراهية بين الأتراك والأرمن شديدة الآن لدرجة أننا يجب أن ننهي الأمر. إذا لم نفعل ذلك، فسيخططون للانتقام".

آرا صرافيان.. من الكراهية إلى المصالحة

مثل العديد من الأرمن خارج تركيا، نشأت في جو لم يكن من السهل فصل الرغبة في الانتقام عن الرغبة في العدالة. في المراكز السكنية، كان من الممكن في كثير من الأحيان العثور على ملصقات للأرمن الذين اغتالوا مسؤولين أتراكاً خلال سلسلة من الاغتيالات السياسية في السبعينيات والثمانينيات. لقد كانوا وفق الرؤية العامة أبطالًا - فدائيين - وتم تشجيع الأطفال على تكريمهم وكتابة الرسائل لمن تم سجنهم. كانت المصالحة فكرة لا يمكن تصورها. أي تمييز بين الأكراد والأتراك كان غير جوهري. كانوا نفس الشيء ، يستحقون نفس الشك والسخرية والكراهية.

أحد الحاضرين في الكنيسة في عيد الفصح كان يحمل هذا الشعور بالانتقام مثل أي شخص آخر: آرا صرافيان، مؤرخ مستقل وناشط ومقاتل في "الحرب على تاريخ الأناضول". نجت عائلة صرافيان من الإبادة الجماعية وانتقلت بعد ذلك إلى قبرص ، حيث أمضى طفولته. لكن في عام 1974، بينما كان في لندن في إجازة عائلية مع والديه، غزا الجيش التركي قبرص، وأصبحوا لاجئين فجأة. تعهد بتعلم اللغة التركية لمواجهة رواية الدولة التركية عن الإبادة. قال لي: "أردت أن أؤذي الأتراك". تقدم بطلب للحصول على زمالة في أنقرة، وعندما تم رفضه (كان متأكداً ان أسمه الأرمني كان العامل الحاسم وراء هذا الرفض) دفع رسومه الدراسية من خلال تدريس اللغة الإنجليزية. لقد غيّره القدوم إلى تركيا بطريقة غير متوقعة. أدى التأثير المشترك للتعرف

على المواطنين الأتراك والتعليم والنضج وتغيير السياسة التركية إلى تآكل كراهية المراهقة لديه حتى بدأ في البحث عن فرص للمصالحة. في لندن، أسس مطبعة صغيرة، تسمى معهد كوميداس، بهدف الكشف ونشر تفاصيل أحداث 1915. ولكن في السنوات القليلة الماضية، وسع من عمله، وقام برحلات إلى تركيا للتحقيق في كيفية بقاء الإبادة الجماعية جزء من التجربة الحية هناك، وكيف يتعارض الإنكار الرسمي مع الذاكرة المحلية. يعتبر صرافيان عمله الجديد كسفير، حيث يتعامل مع سياسيين مثل عبد الله دميرباش.

مؤخراً ذهب صرافيان إلى بدليس، لحث البلدية على تسمية شارع باسم الكاتب (الأمريكي من أصل أرمني ويليام سارويان الذي ينحدر من بدليس. اصطحبه صديق إلى ضاحية من ضواحي المدينة. روى لي صرافيان ما جرى معه: "ذهبنا إلى إحدى القرى، والتقينا برجل كردي كان يمتلك مزرعة أسماك، وكانت هناك كنيسة قديمة، كنيسة صغيرة جداً، قدم الرجل لنا الشاي وقال، أتعلم أني أملك هذه الكنيسة"؟. كان بإمكاني تجاهل ما قاله. سألته، كيف يمكنك امتلاك كنيسة؟ فقال، الأمر بسيط للغاية، في عام 1915، صدر أمر بقتل جميع الأرمن، وبعد ذلك قسمنا ممتلكاتهم بيننا، وهكذا حصلت عائلتنا على هذه الكنيسة". أضاف صرافيان: "أثناء مغادرتي، جاء الرجل الكردي إلي وقال الآن أخبرني ماذا تريدني أن أفعل بهذه الكنيسة، وسأفعل ذلك". ويتساءل صرافيان: "كيف يمكنني أن أكره هذا الرجل؟".

في 2013، حصل صرافيان على إذن من بلدية ديار بكر لإحياء ذكرى الإبادة الجماعية هناك - وهي المرة الأولى التي يتم فيها ذلك. قام بتنظيم احتفال على جسر يمتد على نهر دجلة، حيث ألقى المشيعون بالورود في النهر. بعد بضعة أشهر، حث دميرباش الحكومة التركية على أن تحذو حذو المدينة "نحن الأكراد، باسم أجدادنا، نعتذر عن مذابح وترحيل الأرمن والآشوريين في عام 1915. وسنواصل كفاحنا لتأمين الاعتذار والتعويض لهم".

خلال إقامته في ديار بكر، غامر صرافيان بالتوجه إلى الريف لإجراء مقابلات مع القرويين. في بحثه، عثر على أحفاد قبيلة كردية خاضت الحرب عام 1915 لحماية الأرمن. منذ تلك الزيارة، أراد صرافيان زرع الورود عند قبر زعيمهم القبلي. وقال إن هذه البادرة ضرورية لإظهار المعاملة بالمثل، للتأكيد على أن التصور الأرمني ضد الأكراد- بصفتهم متوحشين متعطشين للدماء- يمكن أن يتغير. قال لي "الأكراد يعتذرون بشدة". إنهم يعرفون أن المجازر وقعت، وهم يعرفون أن الأكراد متورطون فيها. الأمر متروك لنا لنقول "أنا أقدر صدقك والطريقة التي تتعامل بها، أنك تشعر بالذنب- لكننا لا نتهم الأكراد بأي حال من الأحوال بأنهم أمة يميلون بطريقة ما إلى ارتكاب الإبادة الجماعية. انتقادي للأرمن هو أننا لا يجب أن نغرق في شعور الضحية. هذا لا يساعدنا".

في اليوم التالي لعيد الفصح ، قابلت صرافيان في فندقه لمرافقته في الرحلة. في سيارة مستأجرة، سافرنا لمدة ساعة ونصف تقريباً، وتوقفنا بالقرب من مجموعة من المنازل المتواضعة في مراعي منعزلة تتناثر فيها الصخور. اقترب عدة رجال - بدلات رمادية وقمصان بيضاء وأطواق مفتوحة. احتضن صرافيان أحدهم. كان الزعيم القبلي في عام 1915 هو الحاج محمد مشته ، وكان أحد أحفاده رجب كارابولوت. قبل مضي وقت طويل، كان صرافيان يقول

إن كارابولوت مثل أخيه، وكان كارابولوت يقول إن صرافيان من العائلة. كانت هناك مصافحات، قبضات خشنة. قال صرافيان بسرعة للآخرين:

- "أحضرت الورود لنزرعها".
- "دعونا نذهب، هيا"
- "يجب أن نصلي".
- "بالطبع سوف نصلي".

قال أحد الرجال إن مقبرة القرية كانت أعلى التل. صعدنا مرة أخرى إلى سيارتنا. قال صرافيان وهو يقود سيارته: "لدينا ثقافة مشتركة هنا. لا يمكنك فصل الأرمن عن الأكراد". عندما وصلنا إلى المقبرة، أخذ صرافيان شتلات الورود من السيارة، وأعطى واحدة إلى كارابولوت، وقال له: "تفرقنا مائة عام". قال كارابولوت: "لقد وحدنا التاريخ الآن". ثم مشى الرجلان. كان شاهد القبر بحواف مستديرة، ونُقِشت على واجهته كتابة عربية. قرأ رجل دين في القرية النقش، وهو عبارة عن سطر من الشعر عن عدم ثبات الحياة، ثم قرأ التاريخ بالتقويم العثماني ، وبعد نقاش طويل استقر الرأي بأنه كان ربما يدل على عام 1917. ربط صرافيان قطعة قماش بإحدى الأشجار المجاورة، وهو تقليد قديم، ونطق ببضع كلمات تكريما للحاج مشته.

قدمت العشيرة خروفاً على الغداء، وتوجهنا إلى منزل على تلة. بينما كان الجميع يأكلون، انحرفت عيني إلى التلفزيون الصامت، إلى خبر يوم 24 نيسان/أبريل، يوم ذكرى مجازر الأرمن. على مدى السنوات العديدة الماضية، أقيمت المناسبة في اسطنبول. كان يوم 24 نيسان/أبريل على بعد أيام فقط، وتضمن التقرير ملفًا مصورًا لحدث العام السابق: أشخاص يجلسون على الرصيف ويحملون صورًا للمثقفين الأرمن الذين تم اعتقالهم في العاصمة وقتلهم عام 1915. لا توجد دعوات للعدالة، لا مطالب، مجرد جلوس، كل صورة تعود لقرن مضى.

رشيد باشا والمقابر العائمة

بالنسبة لديار بكر، جاءت الإبادة الجماعية مع الوالي المعين حديثاً آنذاك، أو الحاكم الإقليمي، الدكتور محمد رشيد، ومسؤول عن مقتل أكثر من مئة ألف شخص. كان رشيد مسلماً شركسياً من منطقة القوقاز التي سيطرت عليها روسيا، حيث نجت عائلته من عملية تطهير عنيفة سابقة. وبدءًا من عام 1860، أجبر القيصر مئات الآلاف من المسلمين على النزوح من المنطقة، وطاردهم إلى شواطئ البحر الأسود ، حيث تم تسليمهم إلى الإمبراطورية العثمانية على متن سفن أصبحت تُعرف باسم "المقابر العائمة". ولد رشيد عام 1873 وانتقلت عائلته إلى اسطنبول بعد عام. التحق بالمدرسة العسكرية للطب، وكان منشغلًا باستبداد السلطان، وساعد في تأسيس حزب الاتحاد والترقي. وكتب في مذكراته: "لطالما رغبت في القانون والعدالة". "كانت لدي دائماً صداقة وثقة جميع رفاقي؛ لم أشارك قط في سلوك خسيس".

مع بداية انهيار الدولة العثمانية، بدأت أفكار رشيد تتشدد. وكتب: "لقد خدمت في مناصب رسمية مختلفة - بحر إيجه والموصل وبغداد - يتزايد قلقي من أن مسيحيي الإمبراطورية

يشكلون تهديداً داخلياً خطيراً". على بحر إيجة، قام رشيد بترحيل اليونانيين العثمانيين بقوة، على أمل استبدالهم باللاجئين الأتراك. بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى بغداد، كان رجلاً مختلفًا. وكما يتذكر سليمان نظيف "فبدلاً من الطابع القديم المتزن والهدوء الذي كان عليه رشيد باشا، كان معباً بغطرسة وغضب مروعان".

في ديار بكر، تسلم رشيد سلطة الدولة المنهارة. كان قد ترسخ الفساد والجنود فروا من الخدمة. كان العديد من الهاربين من الأرمن. اتهمهم رشيد بكونهم "وحدة نخبوية لذبح المسلمين"، اعتقلتهم السلطة وحاولت انتزاع المعلومات منهم عن طريق التعذيب، لكن رشيد لم يكتشف أية مؤامرة. فرض رقابة شديدة وأعلن مصادرة جميع الأسلحة. اجتمع أرمن دياربكر لمناقشة ما يجب القيام به. تحدث جدي في وقت لاحق عن اجتماع أعلن فيه رجل أن لديه مخزوناً من الأسلحة خارج أسوار المدينة. لكن الجميع قرر أن التشدد يحمل مخاطرة كبيرة وسلم أسلحته. اعتبر رشيد أن كنيسة القديس كيراكوس أصبح مستودعاً مؤقتاً للأسلحة، قام بتفتيشها، وقتل أحد أساقفتها، لكنه لم يجد شيئاً. بعد وقت قصير نهبت الكاتدرائية. يتذكر أحد الشهود: "هرع البعض من الكنيسة خارجاً حاملين أكوابا وكؤوسا وأوان أخرى". "لقد جابوا الشوارع وهم يدقون الصنج ويدعسون على الصفحات الممزقة من الكتاب المقدس."

كتيبة الجزارين

أنشأ رشيد قوة ضاربة، مصممة للقيام "بإجراءات خاصة" وأعمال "عقابية" في جميع أنحاء المقاطعة. أصبحت الوحدة تعرف باسم كتيبة الجزارين. سعياً لتجميع الأكراد المطلوبين للدولة، أصدر عفواً عن المنفيين من قبيلة معروفة بأعمال قطع الطرق. تواصل مع زعماء القبيلة ووضع خطة لقتل الأرمن عبر ترحيلهم على طوافات تسمى keleks (أغصان مكدسة فوق جلود الماعز المنتفخة) عبر نهر دجلة. وقال، بحسب رواية حفيد أحد زعماء القبائل: "سأقدم لكم قافلة بعد الأخرى من الأرمن. ستجلبهم عبر نهر دجلة. عندما تصل القوارب إلى مكان لا يستطيع أحد رؤيتهم أو سماعهم، ستقتلونهم جميعاً". أوصى رشيد بملء الجثث بالحجارة لإغراقها وأوصى: "الذهب والمال والجواهر، نصفها لكم، والنصف الآخر ستجلبونه لي لأعطيه للهلال الأحمر. ولن يسمع أو يعرف أحداً عن هذا السر".

في دياربكر ، قام رشيد بسجن ما يقرب من ألفي مسيحي بارز، معظمهم من الأرمن، وفي أيار/مايو 1915، تم استدعاؤهم إلى باحة السجن، حيث قرأ المفتي إبراهيم وثيقة توضح أنه تم العفو عنهم ولكن سيتم ترحيلهم إلى الموصل: قد تعودون إلى منازلكم بمجرد انتهاء الحرب. في أواخر ذلك الشهر، تم إرسال أكثر من 600 أرمني إلى النهر وقتلوا. وكان رشيد قد أخطر نظيره في الموصل بتوقع وصول الطوافات، لكنها وصلت فارغة، تلتها جثث منتفخة وأجزاء متحللة من الجسد.

في ذلك الصيف، سافر فائز الغصين، المحامي العربي والمسؤول العثماني السابق من سوريا، إلى ديار بكر. في كتاب بعنوان "أرمينيا الشهيدة"، كتب عن الدمار. على بعد مائة ميل شمال دمشق، التقى برجال ونساء محتشدين تحت خيام مصنوعة من أغطية وسجاد. دوّن قصصاً عن مسيرات الموت المتجهة جنوباً. ثم بدأ في مشاهدة القوافل - بدت من مسافة بعيدة وكأنها قوات

تسير إلى المعركة ، ولكن عن قرب استطاع أن يرى أنها كانت حشوداً منهكة، معظمها من النساء ، حفاة القدمين. وكتب: "كلما تخلف أحدهم عن الركب، كان أحد رجال الدرك يضربها بعقب بندقيته، ويرميها على وجهها، حتى تنهض مرعوبة وتنضم إلى رفاقها". "وإذا تأخرت إحداهن عن الالتحقاء بالقافلة بسبب المرض، فإما أن يتم التخلي عنها، وتركها وحيدة في البرية، لتكون فريسة للوحوش البرية، أو أن ينهي الدرك حياتها برصاصة." في مدينة أورفا، كان هناك جنود عثمانيون من حلب - ضابطاً يحمل مدفعاً "حوّل الأحياء الأرمنية إلى أنقاض".

على مشارف ديار بكر، ساد مشهد أكثر قتامة. يتذكر الغصين: "سرنا وسط الجثث المشوهة للقتلى. رجل ممدد ، اخترقت رصاصة صدره؛ امرأة ممزقة بالرصاص؛ طفل ينام آخر نوم بجانب أمه؛ فتاة في مقتبل العمر، في وضعية تحكي قصتها. كانت هذه رحلتنا حتى وصلنا إلى قناة تسمى كارا بونار بالقرب من ديار بكر، وهنا وجدنا تغييرا في أسلوب القتل والوحشية. رأينا هنا جثثا محترقة تحولت إلى رماد. يعلم الله، الذي لا يخفى عنه أي سر، كم عدد الشباب والفتيات الجميلات، الذين كان ينبغي أن يعيشوا حياة سعيدة معاً، قد التهمتهم النيران في هذا المكان المشؤوم. كنا نتوقع عدم العثور على جثث القتلى بالقرب من أسوار ديار بكر، لكننا كنا مخطئين، لأننا سرنا بين الجثث حتى دخلنا بوابة المدينة".

كان لدى آخرين قصص مماثلة. وجد سليمان نظيف أن "رائحة الجثث المتعفنة تتغلغل في الجو". وردًا على شكوى من مسؤول عثماني في سوريا من أن الأنهار باتت مسدودة بالموتى، أشار رشيد، "أولئك الذين قُتلوا هنا إما يتم إلقاؤهم في كهوف عميقة مهجورة أو يتم حرقهم كما كان الحال بالنسبة للجزء الأكبر " في النهاية، أصدر وزير الداخلية أمراً بدفن المتوفين على الطرقات، بدلاً من القاء جثثهم في الجداول والبحيرات والأنهار، وإحراق الآثار التي تركوها وراءهم على الطرقات".

الجد .. سِفْر النجاة

داخل أسوار المدينة، تم تدمير متجر جدي، لذلك بات يعمل من المنزل. كان هناك مصوراً أرمينياً أجبره الأتراك على التقاط الصور. قال يوماً إنه رأى الكثير، وبعد فترة وجيزة اختفى. كان هناك أقارب من جباخجور (بينغول)، من بينهم أخت جدي المتبقية، مريضة بالسل، وتركت له طفلة تبلغ من العمر عامين. كانت هناك امرأة قُتل زوجها، وجندي أرمني يعاني من نقص التغذية، تتذكر عمتي ، كيف أنه جاء المزيد والمزيد من الناس إلى كنيسة القديس كيراكوس، ربما يصل عددهم إلى ثلاثين شخصاً، واختبأوا في حفرة فحم، خلف أكوام من الخشب ، في نفق تحت الأرض.

جاء ابن المفتي إلى جدي قائلاً له، "دعني أعطيك واحداً أو اثنين من الأيتام". أحضر مراهقًا من بدليس يدعى كابرييل. روت عمتي: "بدأ والدي يسأل من حوله، محاولاً العثور على والده، والبحث في الصحيفة، وحتى الاتصال بالكاتدرائية الأرمنية في اسطنبول". "وردت أخبار عن شخص تطابق مواصفاته والد كابرييل. أراد كابرييل الذهاب، فرتب والدي السفر له. مع وصول كابرييل إلى هناك ، كان والده قد مات قبل يومين فقط".

كان جدي قد أنشأ علاقات مع مسؤولين محليين، لكنها لم تكن وثيقة. قال لي والدي ذات مرة أنه جاء ضابط شرطة رفيع المستوى لزيارة جدي. أحضرت جدتي الطعام، وجلس جدي، الذي كان معتادًا على دفع الأطباق بهدوء في اتجاه الضيوف، ينتظر. أكل الضابط، وعندما انتهى، بدأ يروي أنه بينما كان يسير على ضفة النهر رأى امرأة أرمنية يعرفها جدي، كانت على وشك التعرض للاغتصاب؛ فأطلق عليها النار لتجنيبها البؤس. لم يستطع جدي السيطرة على غضبه، وطرد الضابط من منزله، فتعهد الضابط أنه بحلول الصباح سوف يضع أسرته في القوافل: حكم بالإعدام. (في رواية عمي ، يختلف مصدر الخلاف ، ولكن ليس النتيجة). قال والد جدتي، كيفورك، إنه سيغلق الباب، ويغمر المنزل بالبنزين، ويحرق الأسرة بدلاً من الاستسلام. أعقب ذلك ليلة بلا نوم. عند الفجر نادى المؤذن في المسجد. كانت الشوارع هادئة. التفت جدي إلى أحد الأشخاص في منزله، وهو رجل أرمني في السر وكردي بين الناس. قال له: اذهب إلى المسجد وأخبرنا بما يحدث. ذهب الكشاف، فوجد جنازة ضابط الشرطة قد توفي بعد وقت قصير من مغادرته، بسبب نوبة قلبية. عاد الكشاف صارخاً باللغة الأرمينية، "مات الرجل**!**" ذهب جدي ليرى بنفسه، دخل بين المعزين ، وأومأ بحركة رأس قائلاً "رجل طيب".

المقايضة: الخياطة مقابل الحياة

بعد زراعة الورود ، أراد صرافيان السفر جنوباً، إلى ضفاف نهر دجلة، حيث تآمر رشيد مع الأكراد لمهاجمة الطوافات. في تقرير دبلوماسي قديم ، وجد إشارات إلى الموقع، وفي زيارة سابقة ذهب للبحث عنه لكن اتضح أن الموقع المشار إله في التقرير كان بعيداً عدة أميال، فقام القرويون بتصحيحه. قال في السيارة: "الأكراد لديهم ذاكرة حية عن الأرمن، سواء كان منزلاً أو مبنى أو حقلاً". "الذاكرة لا تزال موجودة".

لم يعرف صرافيان الطريق، لكن وجدنا شخصاً يمكنه أن يرشدنا: إكرام سيفيم، كاتب بالعدل، طويل ونحيل، يرتدي سترة. عندما مررنا بقرية مبنية على مقبرة للأرمن، تحدث سيفيم عن عام 1915: "الأرمن الذين تم اقتيادهم كانوا يقولون: لدينا حيوانات في الجبل، وإذا لم تحلبوها فسوف تمرض. لم نقل أي شيء. كانوا يعتنون بحيواناتهم، ولم نكن نعتني بهم".

بعد عشر دقائق، كنا بين تلال ، والعشب نابض بالحياة. كانت لافتة تشير إلى موقع عسكري "منطقة أمنية خاصة- يمنع الدخول". تحرك سيفيم بخفة أمامنا، وانعطف يميناً، ثم يساراً فتبعناه، حتى أفسح الطريق الممهد الطريق لشبكة من المسارات الضيقة. نمت الأحجار على الطريق بشكل أكبر وأكثر حدة. خوفا من أن يثقبوا إطاراته ، لم يرغب سيفيم في المضي قدما. تابعنا بسيارة صرافيان، كنا نقود على مهلنا، بينما يقوم البعض برمي الحجارة الكبيرة من أمام السيارة. ومع ذلك، كان من الواضح أننا لن نصل إلى الوادي الضيق قبل حلول الظلام.

في السيارة ، ذكر صرافيان أنه كان يخطط لحدث في ديار بكر في اليوم التالي، لكنه مضطر للسفر إلى باريس لحضور مؤتمر أكاديمي. قال إنه تم بناء سد على مجرى النهر، فغمر الموقع بالمياه، واكتمل محوه. كما اختفت الذاكرة المحلية للحدث. خلال رحلته السابقة، التقى بزعيم قرية يبلغ من العمر ثلاثة وثمانين عامًا يُدعى حسين كاراكوش، شارك عمه في المذبحة في الوادي. روى قصة طوافات الموت أمام عائلته، وسجلها صرافيان ، بهاتفه: تم إرسال الأرمن من ديار بكر إلى أسفل النهر بأمر من الوالي، و" قتلوا وحرقوا جميعا ". عندما سأل صرافيان

عما إذا كان هناك أي أرمني في المنطقة، بدأ الرجل في سرد عشرات القرى - كفرزو ، وبازبوت ، ودرعي ، وتميز ، وباراسو - التي تم إفراغها من السكان. قال: "لقد ذبحوا جميعاً ، لقد كانت خطيئة". وعد صرافيان بالعودة ، لكن كاراكوش توفي بعد وقت قصير من لقائهما، آخذاً معه أي شيء آخر يعرفه.

في طريق العودة إلى ديار بكر، غفوت، ثم استيقظت. تذكرت جدي. كلما عرفت أكثر عن بقائه على قيد الحياة، بدا الأمر أكثر خطورة. كانت معظم قصص الناجين التي سمعتها من الأرمن في ديار بكر لأطفال أيتام أو تم إنقاذهم مع أمهاتهم - استقبلهم الأتراك أو الأكراد. نجا جدي كشخص بالغ، بشكل علني نسبياً، حيث قام بإيواء أرمن آخرين بطريقة لا يبدو أنها كانت اعتيادية تماماً.

ربما لم يكن بارزاً بما يكفي ليتم وضعه على الطوافات وسرقته مثل باقي الأغنياء الأرمن في المدينة. لكنه لم يتم ترحيله. بالتأكيد ، لديه مهارات مفيدة. في برقية، أفاد رشيد أنه سُمح لمئتي حرفي أرمني بالبقاء في المقاطعة، لأنهم كانوا مهمين للجيش. جدي، بقدر معرفتي، لم يعمل أي شيئ لصالح الجيش أبداً. لكن والدي وإخوته يقولون إنه قدم الملابس الغربية لأعضاء النخبة الكردية والتركية في المدينة، حتى وهم يخططون للمجازر، من حيث الجوهر كان يقايض حياته.

هناك قصة يتذكرها جميع أطفال جدي الأحياء: مع انتهاء أعمال القتل والتهجير، تلقى دعوة غير مرغوب فيها من الوالي نفسه. حضر أمامه فسأله الوالي: لماذا ما زلت حيا؟ عندما أخبره جدي أنه خياط ماهر، أعطاه كمية من القماش وقال له اصنع لي معطفا. لاحظ جدي أنه لم يكن هناك ما يكفي من القماش لخياطة المعطف، ولكنه أدراك أنه لا يستطيع الرفض، فمصير عائلته مرتبط بهذا المعطف. لقد عمل بجد، وعندما انتهى منه وأحضره إلى الوالي، أعجب به كثيراً وبينما كان جدي يغادر، صرخ الوالي "انتظر أود أن تكون هذه الأزرار مغطاة بالقماش أيضاً". لقد "ناضل" جدي لتغطية الأزرار، مستخدماً كل قصاصة قماش متبقية، ثم عاد بالمعطف إلى الوالي، ونجا.

قال لي مؤرخ قضى سنوات في دراسة استئصال أرمن دياربكر "من المستبعد جدًا أن يُسمح لأي شخص لا يتمتع بثقة تامة بالاقتراب من رشيد باشا وأخذ قياساته". وأشار الغصين ، مؤلف كتاب "أرمينيا الشهيدة" ، إلى أن رشيد احتفظ ببعض الحرفيين الأرمن في ديار بكر، لكنه أشار إلى وجود أشكال أخرى من المحسوبية أيضاً. وكتب "آخر عائلة تم ترحيلها من ديار بكر كانت عائلة دنجيان، حوالي تشرين الثاني/نوفمبر 1915". "هذه العائلة كانت محمية من قبل بعض الأعيان" يبدو أن عائلتنا كانت كذلك.

كان جدي يعرف المفتي إبراهيم وأفراد عشيرته، وهم من الأكراد المحليين البارزين الذين ينتمون إلى الدائرة المقربة من رشيد، وعلى وجه الخصوص، نجل المفتي شريف- وهو رجل دبلوماسي مدرج في المرتبة 12 تحت عنوان "الأشخاص المسؤولون عن مذابح الأرمن في ولاية ديار بكر". بعد الحرب، غالباً ما كان شريف يزور منزل العائلة، ويخبرني والدي أنه كان يتم تبادل المجاملات، وأن الأطفال كانوا يقبلون يده، وأن جدي غالباً ما كان يتمتم بلعنة خفيفة بعد مغادرته.

ربما يكون من المستحيل فهم مزيج الصداقة والعداء والشك وانعدام الثقة بين جدي وابن المفتي- تعقيدات العلاقة التي تجاوزت ليس فقط الاختلافات الطائفية والدينية ولكن أيضًا صدع الإبادة الجماعية. في عام 1915، قصد شريف باب جدي سراً، وحذره أن المنزل محل شك كملاذ لبعض الأرمن. طرد جدي من كانوا مختبئين هناك بينهم بعض الرجال متنكرين في حجاب النساء. جاء الجندرما ومعهم كلاب، لكنهم لم يجدوا شيئاً. من الصعب معرفة لماذا قرر شريف المساعدة، والمخاطرة بحياته. قبل مغادرته ديار بكر بقليل ، سأله جدي عن السبب، فأجابه شريف: "الروس كانوا يتقدمون. كانوا قد وصلوا حتى أرضروم. لو وصلوا إلى ديار بكر، وأنا كنت مكانك في هذه الحالة، كنت ستحميني".

كما تبين، مخاوف شريف كانت في غير محلها. في ديار بكر ، ظل العديد من الأشخاص المتورطين في الإبادة الجماعية بارزين في الحياة المحلية. دخل شريف وعضو آخر من عشيرته، البرلمان. كما أن الوالي كان غير نادم. سكرتير الحزب سأله لاحقاً "أنت طبيب. وكونك طبيباً، فأنت مسؤول عن إنقاذ الأرواح، كيف استطعت ترك الكثير من الأبرياء يموتون؟ " فكان جواب رشيد واصفاً التهديد الوجودي "رأيت أن بلدي سوف يضيع. لذلك، أغمضت عيني، وواصلت المضي قدما دون خوف، مقتنعا أن ذلك من أجل خير أمتي. هؤلاء اللصوص الأرمن كانوا مجموعة من الميكروبات الضارة التي تزعج جسد هذه الأمة. واجب الطبيب قتل الميكروبات، أليس كذلك؟".

في نهاية الحرب، في عام 1918، تم اعتقال رشيد ومحاكمته من قبل محكمة عثمانية عملت لفترة وجيزة تحت ضغط خارجي. لكنه فر من الاعتقال، وبينما كانت السلطات تحاول مطاردته، كتب رسالة مشوشة إلى زوجته. وقال إن "كلاب الصيد الأرمنية انضمت إليهم". نصحه أصدقاؤه بتسليم نفسه، لكنه وبخهم. "أشعر أن النتيجة ستكون قاتمة. أنا أفكر في الانتحار". وفي فبراير/شباط 1919 قتل نفسه. مُنحت عائلته راتباً حكومياً - مقابل "خدماته للوطن" – ولاحقاً جاء الوقت المناسب لتكريمه: شارع في وسط أنقرة لا يزال يحمل اسمه.

الحياة بعد الحرب

بعد الحرب ، سعى جدي للانتقال من المدينة التي ظلت في حالة اضطراب. في عام 1925 ، تم سحق تمرد كردي، وأعدم قادته شنقاً وسط المدينة. بعد أربع سنوات، قال جدي، عن بناته "هؤلاء الفتيات يجب أن يغادرن". قام بتهريبهم وأحد أبنائه إلى حلب. ثم باع منزله وجميع أشيائه، ونقل الأسرة إلى شقة صغيرة، في انتظار تصاريح تسمح لهم بالمغادرة. لكن التصاريح لم تأت قط. وباءت محاولاته اللاحقة بالفشل أيضاً. أخبرتني عمتي أن صديقاً له، وهو مسؤول تركي، بحث في سجلاته وأخبره أنه لن يحصل على إذن مطلقاً "من المفترض أن تبقى هنا وتعمل". لقد تم القضاء على طبقة رجال الأعمال في المدينة.

بدأ جدي العمل مع أحد "الوجهاء" ، وهو عضو بارز في عائلة "بيرينجي زاده" ساعد في حمايته. كما افتتح مصنعاً لزيت السمسم. وبطريقته الهادئة، استمر في مساعدة الناس. قالت عمتي إنه كان "فاعل خير مجهول" ، مضيفة: "الجميع كان يدعوه بالخال". في منزله، سمح فقط بالتحدث بالأرمنية، ومع ذلك منع نفسه وعائلته من التحدث بها في الشوارع. على الرغم

من أنه كان يحب ارتداء ملابس باهظة الثمن، إلا أنه لطالما كان أطفاله يدوسون عليها قبل أن يخرج. كان الظهور بشكل أنيق يشكّل مخاطرة. عندما علم أن أحد أبنائه كان يخطط سراً للهروب، ساعده. زارته إحدى بناته من حلب؛ أحضر لها حلوى رمضانية ملفوفة بالورق وأخبرها أنه إذا استطاعت أن تعرف ما هو الحلوى فسيعطيها أي شيء تطلبه. عندما خمنت بنته بشكل صحيح، طلبت أن تأخذ معها أحد إخوتها، فالتزم بوعده.

ازدهر عمل جدي، واقترب أكثر من المسجد الكبير (وأبعد من حي الكفار). مع ولادة والدي، في عام 1936 ، كان قد بنى منزلاً كبيراً، به إسطبل مواجه للشارع، وفناء، وسقف مسطح على طراز ديار بكر المعماري. في تلك السنوات، خلال حرارة الصيف الشديدة في الأناضول، كانت المدينة بأكملها تقريباً تصعد إلى أسطح المنازل في الليل، إلى أسرّة خشبية مفتوحة على السماء. قصص عائلتي عن الحياة في ذلك المنزل تعطي إحساساً بأن قرناً من الحداثة زارهم بوتيرة متسارعة. يتذكر والدي الانتقال من وجبات الطعام على السجادة، على طراز الشرق الأدنى، إلى تناول الطعام الغربي، مع طاولة وكراسي وأوان خزفية؛ كاميرا جديدة وغرفة مظلمة صغيرة لالتقاط الصور.

لا ساق خشبية في بيروت

في حقيبة قديمة مليئة بالصور، وجدت صورة التقطت في ذلك المنزل؛ على ظهرها، كتبت والدتي، "عام 1950". جدي في السبعين من عمره تقريباً، في الوسط: شعر قصير، ممشط بدقة، أبيض نقي؛ ربطة عنق محاطاً بثلاثين شخصاً متراصين في الصف. بالنظر إلى تلك الصورة، من الممكن ملاحظة أن المنزل كان مخصصاً لاستيعاب الأجيال، ومع ذلك، بعد عام أو عامين فقط، تخلى جدي عنه: قطار إلى سوريا، وأوراق مزورة، وسفينة إلى بيروت.

في المنفى ، استسلم لمجموعة من الأمراض: جراحة البروستات، ثم فقد ساقه بسبب الغرغرينا، عاش ليرى ابنه يموت في حادث سيارة وآخر برصاصة أثناء وقوفه على الشرفة- رصاصة طائشة من أحد مقاتلي الفصائل في بيروت. أمضى جدي سنواته الأخيرة طريح الفراش في شقته في بيروت. كانت أموال الأسرة على وشك النفاد؛ وصيته الأخيرة لوالدي، الذي رحل إلى أمريكا عام 1958، كانت طلباً لساق خشبية. أدركه الموت قبل تلبية طلبه. ودفن في قبر عادي جداً.

أخبرني والدي عن عنوان طفولته، شارع جيجيك، وقبل مغادرتي دياربكر، ذهبت للبحث عنه. في زقاق ضيق مرصوف بالحصى، وجدت الرقم مرسوماً بطريقة مشوهة على مبنى سكني تعرض للقصف بالهاونات. كان عرض الشارع يقارب عرض رجل يقف ممدود الذراعين، وكانت المباني مغطاة بكتابات على الجدران تكريما لحزب العمال الكردستاني.. منذ عام 1990، تم تدمير عدد لا يحصى من القرى، وقام القرويون الذين جاءوا إلى ديار بكر ببناء المباني بسرعة مستغلين الثغرات القانونية. أخبرني دميرباش أن المباني كانت تسمى gecekondu، أي "المبنية في الليل". بدا لي الهيكل في شارع جيجيك وكأنه نوع مختلف من

gecekondu، وتخيلت أنه في غضون عشر سنوات ، سيتم هدمه أيضًا واستبداله. البقايا الوحيدة التي يمكن تمييزها من منزل عائلتنا كانت عبارة عن حجر ثقيل كان بمثابة عتبة.

دميرباش: الدولة تعاقبنا وتنفذ مشاريعنا

إن الإنكار الذي تتبعه الدولة ليس فقط مجرد تغييب للحقيقة؛ بل أداة جرح. بعد مائة عام من ذلك، من الصعب أن تشعر بأنك أرمني دون تعريف نفسك كحفيد ناج من الإبادة. قال لي دميرباش وهو جالس في فناء الكنيسة: "هذه الحكومة لها جانب غريب. إنها تعاقبنا، لكنها أيضاً تنفذ مشاريعنا. تم فصلي من منصبي بسبب تقديمي خدمات بلدية بلغات متعددة، ولكن بعد ذلك بدأت الدولة في بث برامج تلفزيونية متعددة اللغات". أثناء حديثنا، هرع أحد المراسلين ليسأل ما إذا كان أي شخص قد سمع عن "اعتذار" أردوغان عن عام 1915. وكما اتضح فيما بعد ، لم يعتذر أردوغان. بل قدم بياناً محيّراً - متعاطفًا في لهجة ولكن في جوهره لا يزال متسقاً مع النفي الرسمي. وقال: "من واجب الإنسانية الاعتراف بأن الأرمن يتذكرون معاناة تلك الفترة، تماماً مثل أي مواطن آخر في الإمبراطورية العثمانية". بعد أسبوع، أكد في مقابلة بأن الإبادة الجماعية لم تحدث أبداً، مردداً المشاعر التي أعرب عنها قبل إعادة بناء الكاتدرائية: "إذا كانت هناك جريمة، فيمكن لمن ارتكبها تقديم اعتذار. أمتي، بلدي، ليس لديها مثل هذه القضية".

في 24 نيسان/أبريل، يوم الذكرى، ذهبت إلى الكنيسة في الصباح الباكر لأرى من سيحضر. كان باب الكنيسة مقفلاً ، لكن وصل عدد قليل من الناس وجلسوا لتناول الشاي. كان هناك رجل من اسطنبول تحدث عن جده الذي كان يمتلك قرية قريبة. سأل الرجل عما إذا كانت الكنيسة تحتفظ بسجلات للأراضي، لكن معظمها اختفت منذ فترة طويلة. قال إنه قبل خمس أو ست سنوات، أخبر صديقاً محاميًا أنه يريد مقاضاة الدولة لاستعادة أرض عائلته، لكن المحامي نصحه بعدم فعل ذلك: فقد اختفت عائلتان رفعتا مثل هذه الدعوى. قال أحدهم: "الأمور تتغير". قال الرجل: "نعم". "ولكن إذا كان لديك ما يعادل مائة عام من الخوف بداخلك، فمن الصعب أن تتغير بين يوم وآخر".

بينما كان يتحدث، وصل رجل آخر وجلس، رجل في الأربعينيات أو الخمسينيات من عمره، بشعر داكن، وشارب كثيف، حزين. لاحقاً، أخبرني أحدهم أن اسمه عباس إركان. بصوت مرتجف، سكب طوفاناً من الذكريات المتتالية الفضفاضة. بدأ بالقول بأن جده نجا من المذابح، ولكن بمجرد أن بدأ في الكلام، كان عليه أن يتوقف، وبعد شهقة صغيرة، بكى. قامت امرأة على الطاولة بمواساته: نعم، نعم، قالت، لقد بكينا جميعاً بسبب أشياء كهذه. لخص إركان قصته، كيف أن جده وخالته قد تيتموا، وكيف استقبلهم الجيران، وكيف كسبوا المال من تنظيف الصوف، وعمل النول، وصبغ القماش. ولكن، الصعوبة لم تكن في البقاء على قيد الحياة عام 1915، بل النجاة من الإنكار. بعد عقود، كما قال، خلال الحرب العالمية الثانية، كان جده - وهو تحول للإسلام واسمه أحمد - يستحم بمفرده في نهر عندما رآه البعض وسألوه، "ماذا تفعل؟" أخبرهم أنه كان يتوضأ، لكنهم لم يقتنعوا وقالوا له "لا، لا، نحن نعرف من أنت"- ما يعني أنهم يعرفون أنه أرمني. سكن الرعب أحمد وبدا خائفاً: يا إلهي، حانت نهايتي.

بدأ إركان في الاختناق مرة أخرى، لكنه واصل، موضحاً أن الأشخاص الذين وجدوا أحمد لاحظوا خوفه فقالوا له: "نحن مثلك أرمن"، وتواعدوا بالبقاء على اتصال، لكنهم لم يفعلوا ذلك أبدًا.

أكد إركان أنه لم يكن لديه أي ضغينة تجاه أي شخص، وأنه جاء ببساطة في ذلك الصباح للقيام بشيء لم يستطع القيام به طوال حياته: التحدث عن هويته وعن تجربة عائلته. استطعت أن أرى أنه بالنسبة لهذا الرجل، لم يكن يوم 24 نيسان/أبريل يتعلق بإحياء ذكرى الماضي بقدر ما كان يتعلق بإيجاد مساحة للتحرر من الحاضر. من المحتمل أنه كان مسلماً، لكن بالنسبة له كانت كنيسة القديس كيراكوس ذا معنى. قال إركان: "كان جدي، كل صباح، بلا استثناء، يذهب للصلاة في المسجد، حتى وإن كان الشخص الوحيد هناك". "ربما كان يقول في نفسه "إذا حدث شيء كهذا مرة أخرى، أريد من المجتمع أن يقول، "لا ، لا ، لا ، لقد كان أحمد مسلماً جيداً - حتى لو كان معتنقاً (متحولاً إلى الإسلام)، فهو مسلم صالح على أي حال". لذلك لن يؤذوه. لست متأكدا بالضبط كم كان مؤمناً". قال أحدهم أن هذه سمة مشتركة بين المتحولين، المغالاة لإثبات إيمانهم. وأضاف إركان: "إنهم يعتقدون أن شيئًا ما سيحدث لهم إذا تحدثوا". قال مرة أخرى: "لكننا لا نحمل ضغينة". "نريد شيئًا واحدًا فقط: عندما نلتقي بشخص مر بكل هذا، مواساة بعضنا البعض".

في ذلك المساء، أراد آرا صرافيان زيارة أنقاض كنيسة أخرى أقدم بكثير، تدعى كنيسة القديس سركيس. كانت مسيرة قصيرة، لكننا ضلنا الطريق، أخذنا منعطفاً، ثم آخر، عبر الأزقة الضيقة حيث جلست النساء المسنات على عتبات الأبواب.

- "هل تعرفن أين الكنيسة القديمة؟"
- "المسجد؟"
- "لا ، الكنيسة. إنه خراب ".

في النهاية ، وجدنا مجمع الكنيسة. كانت البوابة مقفلة، من خلال ثقب في الجدار الخارجي رأينا في الداخل، قيام عائلة ببناء منزل بسيط بجانب الأنقاض. على الجانب الآخر من المدخل، علقوا حبلًا من النايلون لغسيل الملابس. ذكرني المشهد بالشكل الذي كانت تبدو عليه كنيسة القديس كيراكوس منذ سنوات. انهار السقف، لكن بقيت شبكة من الأقواس الحجرية تدعمها أعمدة. الكنيسة كانت تستخدم لتخزين الأرز. ملأت الأوساخ والعشب أحجارها. بدت الأرضية متموجة مثل أمواج البحر، مع صخور البازلت المتساقطة تطفو فيما بينها. خرجت امرأة كردية بجلد منمش مع أطفالها من المنزل. تحدث معها صرافيان. كانت في العشرينات من عمرها. كان زوجها في السجن.

مثل كنيسة القديس كيراكوس، عانت هذه الكنيسة من دورات من الانهيار والولادة الجديدة: في عام 1915، اختفى أثرها. قال صرافيان: "هذه هي حقيقة الإبادة الجماعية للأرمن. كنيسة القديس كيراكوس تمثل أمنية المستقبل". تفحص العمارة المدمرة، ثم شق طريقه مرة أخرى عبر الفتحة الموجودة في الجدار. قبل أربعة أجيال - قبل عقود من ولادة جدي - سعى أحد أفراد

عائلة جدتي، سركيس كازانجيان، لترميم تلك الكنيسة. إنه أقرب شخص يمكن التعرف عليه في شجرة عائلتنا؛ تتلاشى بعده علاقاتنا بديار بكر.

بينما كنت أسير عبر الأنقاض، خطر لي أنه على الرغم من أن كازانجيان لم يعش ليرى عام 1915، فقد تأثر به أيضاً. هذه هي إحدى السمات الغريبة لإنكار الإبادة الجماعية والتتريك: الإمحاء، يعمل بأثر رجعي ومستقبلي في الوقت نفسه. لقد عمل جدي لمستقبل عائلته. لكن ماضيه، ماضينا، مهما كانت المساهمات التي قدمناها للمجتمع العثماني، قد تم القضاء عليها بشكل كامل. كنت أحمل صوري العائلية، وأعرضها على الناس ، وكانت صورة كازانجيان دائمًا تثير أقوى رد فعل. الصورة لرجل عريض الكتفين بعيون كثيفة، يرتدي طربوشاً وسترة ومعطفاً. كان كازانجيان تاجراً ، ويبدو أنه كان له دوراً رسمياً أيضاً. بكت مثقفة كردية، صديقة جيدة لهرانت دينك، عندما رأت الصورة، وعندما سألتها لماذا، لم تجب. لكني عرفت السبب لاحقاً: لم يكن ممكناً تمييز كازانجيان عن أي كردي أو تركي آخر من أبناء جيله.

فقد جدي أصبعه خلال العمل في ترميم الكنيسة عندما كان صبياً حيث انحصرت يده بين حجرين. لو أنني أعرف أي قطعتين من البازلت كانت تلك التي أفقدته أصبعه، لكنت تمكنت من الوصول إليها ولمسها ، لكن لا توجد طريقة لمعرفة ذلك. قالت عمتي إن الإصبع دُفِن تحت أحد المذابح: لقد فقده في عمل من أعمال التقوى. القصة مشكوك فيها، لكن الذاكرة هي كل ما تبقى.